المقال التاسع

ابن النفيس*

إنه لشرف عظيم أن ألقى اليوم المحاضرة التذكارية (لابن الهيثم)، وإنى شاعر، إذ أقف أمامكم بأنى ماثل أمام هيئة موقرة تضم صفوة العلماء وقادة الفكر فى عصرنا ذلك العصر الذى إن صح أن نصف طابعه بلفظين أو ثلاثة، قلنا: «إنه عصر التجديد والابتكار والحيوية» وإن جاز أن نشبهه ببعض الحقب المجيدة فى تاريخ أوطاننا، قلنا: «ما من عصر يماثله، اللهم إلا عهد الأسرة الثامنة عشر الذهبى فى تاريخ مصر القديم، وعصر الخلفاء العباسيين الذهبى فى تاريخ العرب جميعًا».

لقد حرصت الجمعية المصرية لتاريخ العلوم على إحياء ذكرى عالم من علماء ذلك العصر المجيد، ولكن اختيارها لم يقع على أحد الذين ذاع صيتهم، واطرد، وظل يسطع فى سماء العلم حتى اليوم.. لا.. لأنها آثرت - وهنا العبرة من غير شك - أن يكون تكريمها لذكرى عالم ظل مجهولا قرونًا طويلة ولكنه امتاز بصفتين هما فى الواقع أقيم صفات العالم البحاثة، وهما عدم الاكتفاء بالتصنيف والنقل والسير على الطرق المرسومة، ورفض كل ما لاتقره العين والتجربة.

هذا العالم هو (ابن الهيثم) الذى رفع عنه أستاذنا الأستاذ مصطفى نظيف، ستار النسيان الكثيف الذى كان أسدله عليه التاريخ.

ولا شك فى أن الجمعية الموقرة، وصغرى وليداتها شعبة تاريخ الطب، عند اختيارهما لموضوع المحاضرة التى تلقى اليوم فى سلسلة المحاضرات التذكارية (لابن الهيثم)، لا شك فى أنهما أرادتا تكريم روح التجربة والاختراع ووضعها فوق التقليد.

---

* المحاضرة التذكارية لابن الهيثم، ألقيت فى خلال الدورة الثالثة للاتحاد العلمى المصرى سنة ١٩٥٩، ويستطيع القارئ الاطلاع على المراجع كاملة فى ابن النفيس (١٧٩).

obeikandl.com

وهناك أوجه عدة يتشابه فيها (ابن النفيس، وابن الهيثم)، فقد نشأ كل منهما فى الإقليم الشمالى، ثم استدعاهما الحكام إلى مصر، وظل المؤلف الرئيسى لكل منهما مهملا قرونًا طويلة، وأسندت كشوفهما طوال هذا الوقت إلى غيرهما، وآل إلى مصريين تصحيح الأمور ووضعها فى نصابها فى كل حالة، مصطفى نظيف (لابن الهيثم)، ومحيى الدين التطاوى (لابن النفيس).

وقد ألم كلاهما بكل ما وصل إليه علم عصرهما من فقه وشريعة وطب وعلم بحث، ألف كلاهما عشرات بل مئات المؤلفات العلمية، وكان رأيهما فى البحث متماثلا، فقد قال أولهما: «ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى فى سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل إلى الآراء».

وكأن ثانيهما يردد آراء الأول إذ يقول: «فإننا نعتمد على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم، ولا علينا وافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفه».

وهذه العبارات تنم على جرأة وتحد غريبين على عصر ورودهما.

ولد علاء الدين أبو الحسن على بن أبى الحزم القرشى المعروف (بابن النفيس) بالقرب من دمشق سنة (٦٠٧هـ - ١٢١٠م). وكانت دمشق فى ذلك الوقت قد بلغت قمة مجدها وذروة ازدهارها العلمى، بعد أن فقدت بغداد مكانتها الرفيعة، وبالرغم مما كان يصيب العالم العربى بين الحين والحين من الضربات على أيدى المغول فى الشرق، وملوك أسبانيا فى الغرب، والأتراك فى الشمال، والصليبيين فى الشرق الأدنى.

ولقد كان من بيدهم زمام الحكم من الأيوبيين يعيرون الصحة العامة والطب اهتمامًا كبيرًا ورعاية فائقة، وأصبحت دمشق عاصمة ملكهم - بعد أن تغلبوا على الصليبيين - مركزا هامًا للعلوم والفنون، وكان من مظاهر هذه النهضة الضخمة، المكتبة التى أنشأها نور الدين محمود بن زنكى عم صلاح الدين، والتى غذاها بما جمع فيها من الكتب القيمة، والبمارستان النورى الكبير الذى عمل فيه أمهر أطباء العصر. ومع عدم الاستقرار السياسى، فقد ظلت المنشآت الطبية مطردة الأزدهار.

وكان معظم مشاهير الأطباء يقطنون الشام. ومن بين الذين عهد إليهم بإدارة

البمارستان النورى والتعليم الطبى فيه (مهذب الدين الدخوار) المتوفى سنة ٦٢٨هـ، وكان من (مدرسة ابن التلميذ) التى كانت قد انتقلت من بغداد إلى سوريا. ولكى أظهر ما حازاه (الدخوار) من شهرة وماظفر به من مكانة سأذكر لكم ما قاله عنه (ابن أبى أصيبعة):

«وكان رحمه الله أوحد عصره، وفريد دهره، وعلّامة زمانه، وإليه انتهت رئاسة صناعة الطب ومعرفتها، على ما ينبغى عليه وتحقيق كلياتها وجزئياتها. ولم يكن فى اجتهاده من يجاريه، ولا فى علمه من يماثله... فاق أهل زمانه فى صناعة الطب وحظى عند الملوك، ونال من جهتهم من المال والجاه ما لم ينله غيره من الأطباء.. وكان أبوه كحالا. وخدم الحكيم مهذب الدين الملك العادل أبا بكر بن أيوب، وبعث إليه أيضاً أولاد الملك العادل وسائر ملوك الشرق وغيرهم، الذهب والخلع... وولاه السلطان الكبير رئاسة أطباء ديار مصر بأسرها وأطباء الشام.. وفوض إليه النظر فى أمر الكحالين واختيارهم..».

وقد أوصى (الدخوار) بأن يحول بيته إلى مدرسة للطب بعد مماته. وقد تم ذلك فعلا فأنشئت المدرسة ولقبت بالمدرسة الدخوارية. وكان يزامل (الدخوار) بالمستشفى (النورى عمران الإسرائيلى، وراضى الدين الرحابى). وكان من بين تلاميذهم (ابن أبى الفرج، وابن أبى أصيبعة، وابن النفيس). وهذان الأخران أشرفا فيما بعد على قسمين من هذا المستشفى.

أما فى مصر فلم يكن الطب أقل تقدماً منه فى دمشق. ذلك لأن الأمراء الأيوبيين حذوا حذو أبيهم صلاح الدين، الذى أسس فى هذه العاصمة البمارستان الذى سمى أولا بالناصرى، إلى مؤسسه الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم (بالعتيق)، عندما أنشأ الملك المنصور سيف الدين قلاوون البمارستان الذى سمى بالمنصورى، وقد أعجب (أبو العباس القلقشندى (توفى سنة ٨٢١هـ - ١٤١٨م) عند زيارته للقاهرة بالبمارستان الذى كان مايزال العمل قائماً فيه، وأشاد بنظامه، وبما كان يناله المرضى به من العلاج والعناية الفائقة دون أجر، ومما رواه عنه (القلقشندى): أن الملك صلاح الدين، عندما فتح مصر، واستولى على قصر الفاطميين، وجد قاعة كان قد بناها الخليفة الفاطمى

العزيز بالله المعز (٣٨٤هـ - ٩٩٤م). وعندما قيل له إن بها طلسماً يحميها من تسلل النمل إليها اختار هذه القاعة لتكون بمارستاناً ونجد هذه الرواية نفسها فى مخطوط عنوانه «قطف الأزهار فى الخطط والآثار» (لأبى السرور البكرى). وهذا المخطوط موجود فى دار الكتب المصرية. وقد قال (على باشا مبارك) فى «الخطط الحديثة» إن البمارستان العتيق هذا كان يقع فى المكان الذى يشغله الآن منزل الغمرى الحصرى، وإن بابه كان يفتح على حارة الملوخية وهى التى كانت تسمى قبل ذلك بحارة قائد القواد.

وقد قام بالعمل والتدريس فيه أطباء كثيرون نشئوا فى الشام ثم أرسلهم الحكام الأيوبيون ليعملوا فى مصر: من هؤلاء: (عبد اللطيف المهندس، وراضى الدين الرحابى، ويوسف السبتى، وابن أبى أصيبعة، وابن النفيس).

ومع أن مؤرخ الطب (ابن أبى أصيبعة) كان معاصراً (لابن النفيس) وتتلمذ معه على (الدخوار)، ثم زامله فى عمله، فإنه لم يذكره فى النسخ المتداولة من مؤلفه الشهير «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء».

وكان (ابن أبى أصيبعة) رئيساً لقسم الرمد فى المستشفى الذى كان يديره (ابن النفيس)، ثم غادر ذات يوم هذا المستشفى وذهب إلى صرخد الواقعة على حدود الشام، حيث قضى شطراً كبيراً من حياته فى خدمة أميرها عز الدين فاروق شاه وقد ابتدع (مايرهوف(١٨٠) رواية ترمى إلى اتهام (ابن النفيس) بتدبير دسيسة أدت إلى هجرة (ابن أبى أصيبعة)، وإلى تعليل إغفال ذكر (ابن النفيس) فى «عيون الأنباء» على أنه انتقام (ابن أبى أصيبعة) منه.

ولئن كان هذا الرأى جائزاً عندما ابتكر (مايرهوف) هذه الفرية، فإنه أصبح من المؤكد أن شيئاً منها لم يحدث بعد أن عثر يوسف العش على مخطوط بدمشق، تبين أنه جزء من «عيون الأنباء»(١٨١) وقد وصف فيه (ابن النفيس) بأسمى عبارات الإجلال والإطراء وبأنه «كالبحر الخضم والطود الأشم للعلوم.. إلخ». فبرئٌ (ابن النفيس) من مكيدة لم تتفق مع ما عرف عنه من سمو الخلق.

هذا بالإضافة إلى أن (أبن أبى أصيبعة) ألف أكثر أجزاء «عيون الأنباء» و(ابن

النفيس) لم يتجاوز الخمس والثلاثين سنة، أى قبل أن يحوز الشهرة التى حازها فى النصف الثانى من حياته.

وكيفما كان الأمر، فإن الشيء الذى يؤسف له هو أن هذا الإغفال قد حرم تاريخ الطب عند العرب من كثير من التفاصيل عن حياة (ابن النفيس)، وعن إنتاجه، وعمن تتلمذوا عليه أمثال: (بدر الدين حسن، وأمين الدولة، والسديد، وأبى القفل بن كرشك الإسكندرى).

ولذا فقد كاد (ابن النفيس) يُنسى تماماً فى القرون الماضية لولا ظروف سنرويها فيما بعد أدت إلى بحث وتقص نتج عنهما كشف الدكتور (مايرهوف) عن ترجمتين متشابهتين (لابن النفيس) فى مؤلفين موجودين بدار الكتب المصرية أحدهما هو «مسالك الأبصار فى أخبار ملوك الأمصار» (لأبى الفضل العمرى)، والآخر هو «الوفاء بالوفيات» (لخليل بن أبيق الصفدى) الذى ضم ترجمات لحياة الكثيرين. ولقد استق هذان المؤلفان معلوماتهما مما رواه عنه (أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى) الذى هاجر من غرناطة إلى القاهرة حيث توفى سنة ١٣٤٥م. وقد ورد ذكر (ابن النفيس) كذلك فى مؤلفات مشرعى المذهب الشافعى وكان ينتمى إليهم، وفى «روضة العيون» (لمحمد البقير)، وفى «طبقات السبكى» «ومفتاح السعادة» (لطاش كوبرى زادة)، و «حسن المحاضرة» (للسيوطى)، و «شذرات الذهب» (لابن العماد الحنبلى)، و «كشف الظنون» (لحاج خليفة)، و «تاريخ الذهبى»، و «مرآة الجنان» (للباهى)، و «عقود الزمان» (للعينى).

ويستق من تلك الأصول أن (علاء الدين أبو العلا على ابن أبى الحزم القرشى)، المسمى (بالمصرى، وبابن النفيس) نشأ فى دمشق، وتتلمذ على (الدخوار) وغيره من مشاهير الأساتذة أمثال (عمران الإسرائيلى، وراضى الدين الرحابى)، ثم قام بدوره بتدريس الطب، وأشرف على جناح فى المستشفى النورى.. وبعد ذلك غادر الشام واستوطن القاهرة حيث عمل فى المستشفى الناصرى، وتدرج فى مناصب الأطباء بها إلى أن أصبح رئيسهم ورئيس أطباء مصر قاطبة. ولا نعلم متى انتقل إلى القاهرة ولا من عينه فى منصبه من السلاطين.

obeikandl.com

وكان (علاء الدين أبو الحزم) نحيفاً طويل القامة رقيق الجانب، دمث الخلق، ممتازاً فى آداب المعاملة، ولم يتزوج.

وقد كان واسع الاطلاع محيطاً بكل شيء، من أعلم الناس فى عهده، ليس فى الطب فحسب، ولكن فى كافة العلوم: أحاط بفلسفة الإغريق و (ابن سينا)، وتعلم (نحو الزمخشرى)، ودرس الشرع في دمشق ثم فى مدرسة الشريعة المسرورية بالقاهرة، ووضع فيه عدة مؤلفات منها تعليق على (تنقيح الشيرازى)، وآخرين فى الفلسفة لم يصلا إلينا وهما تعليقان على «الإشارات» وعلى «الهداية فى الحكمة» (لابن سينا). كما أنه تناول الفقه فى رسائل عدة منها «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية» و «مختصر فى علم أصول الحديث» الموجودان بدار الكتب المصرية، وجدال فقهى عنوانه «فاضل بن ناطق» يرد فيه على «حى بن يقظان» (لابن سينا).

أما فى الطب فيروى أنه حفظ (ابن سينا) عن ظهر قلب، وأنه ألم بمؤلفات (جالينوس) إلماماً واسعاً، ولقد اعتبره معاصروه مساوياً (لابن سينا) من حيث المكانة العلمية ومدى معرفته للطب، إلا أنه يستمد من بعض المعلومات التى تركها تلاميذه أنه انتقد لأنه كان يعتمد فى علاجه على الحمية أكثر من اعتماده على العقاقير، وأنه كان يفضل منها المفردات على الأدوية المركبة التى كان يصفها معاصروه من الأطباء. مما حض الصيدلى الذى كان يتعامل معه على القول له يوماً إنه إذا استمر على وصف مثل هذه الوصفات فإن الأفضل له أن يعالج مرضاه فى حانوت القصاب أما إذا كان يرغب فى التعاون معه فعليه أن يصف السكر والأشربة والعقاقير فقط. ومن الروايات التى رويت عنه والتى تدل على عمق تفكيره وسرعة خاطره أنه كان يوماً فى الحمام فتركه فجأة إلى قاعة اللبس، وأمر بإحضار ما يلزم للكتابة، وبادر إلى كتابة رسالة طويلة فى النبض. وكان يكثر من الكتابة. ومع أن أكثر كتاباته كانت تعليقات على مؤلفين ممن سبقوه، إلا أنه كان يؤلف بسرعة ودون رجوع إلى الأصول. فكانت الأقلام تبرى له، حتى إذا حفى قلم رماه واختار آخر واستمر فى الكتابة دون انقطاع.

وتوفى بعد مرض دام ستة أيام سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) - حسب رواية (حاج خليفة)، أو (سنة ٦٩٦هـ - ١٢٩٦م) حسب رواية أخرى. ولا نعرف نوع مرضه،

وروى أن بعض زملائه وصف له فى أثناء مرضه أن يتعاطى النبيذ فكان جوابه أنه لا يود المثول أمام ربه تعالى وفى جسمه خمر. وقد وهب بيته ومكتبته للمستشفى المنصورى الذى كان السلطان قلاوون قد أسسه (عام ٦٦٨هـ - ١٢٨٤م)، وهو الذى يسمى اليوم بمستشفى قلاوون.

وقد زعم البعض أنه عمل بهذا المستشفى، أى المنصورى، لا بالمستشفى الناصرى، وإذا تأملنا فى تاريخ هذا المستشفى وجدنا أن الملك قلاوون عندما تولى الحكم نزع ملكية قطعة كانت موجودة بين القصرين الفاطميين. وكانت قد شغلتها أول الأمر الأميرة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله ثالث خلفاء الفاطميين. وقد سميت هذه القاعة إبان سقوط الفاطميين ببيت المسك، ثم أصبحت ملكاً للملك المفضل قطب الدين أحمد، نجل الملك العادل أبى بكر بن أيوب الذى سكنها، فسميت بالدار القطبية. وقد نزع قلاوون الملكية من السيدة عصمة الدين خطون القطبية، وعوضها عنها قصر الزمرد الواقع على رحبة باب العيد. ثم إنه بنى فى هذه القاعة البمارستان الجديد، ومكتب الأيتام، وقد تم إنشاؤهما بعد البدء فى العمل (فى أول ربيع الثانى سنة ٦٨٣هـ أى ١٢٨٤م) بثمانية أشهر. ولذا فإنه يجوز الشك فى صحة الزعم بأن (ابن النفيس) عمل فى هذا المستشفى، إذ إنه توفى على الأكثر فى سنة ٦٨٥هـ، أى أن سنه كانت قد تجاوزت السبعين عند الإنشاء.

ومن الجائز أن يكون قد عمل بالمستشفى العتيق، أى النورى، مدة من حياته، إلى أن أنشأ قلاوون البمارستان المنصورى، فرأى السلطان أن يسند إدارته إلى هذا النطاسى الكبير ليفيد من سمعته الطبية وتوجيهه الفنى المستنير. وربما يفسر ذلك سر إهدائه مكتبته لهذا المستشفى الناشئ الذى لم يكن قد تيسر له بعد تكوين مكتبة مناسبة.

ومن مؤلفاته الطبية «الكتاب الشامل فى الطب» وهو موسوعة كان ينوى أن يتمها فى ٣٠٠ جزء حسب رواية (حاج خليفة)، إلا أنه لم يكتب منها سوى ثمانين جزءاً، وجدت بعد وفاته فى المكتبة التى خلفها للمستشفى المنصورى. ولم يرد إلينا منها إلا بعض فقرات توجد حالياً فى المكتبة البودلية بأكسفورد (رقم ٥٣٦-٥٣٩). ثم كتابه فى الرمد واسمه «المهذب فى الكحول» الموجود فى مكتبة الفاتيكان وكتابه عن الغذاء «المختار فى الأغذية»، و «شرح فصول أبقراط» الذى توجد منه نسخ فى مكتبات باريس

والبودلية والأسكوريال، والذى طبع فى إيران سنة (١٢٩٨هـ- ١٨٨١م)، و «شرح تقديمات المعارف» الذى نسبه إليه (حاج خليفة) وهو تعليق على تكهنات (أبقراط)، ثم «شرح مسائل حنين بن إسحق» الموجود فى مكتبة لندن، و «شرح الهداية فى الطب»، ومؤلف ذكره (بروكلمان) واسمه «تفاسير العلل وأسباب الأمراض»، وتعليق على «كتاب الأوبئة» (لأبقراط) موجود الآن فى أيا صوفيا باستانبول.

أما الكتاب الذى نال أعظم شهرة فهو «موجز القانون» وهو موجز عملى لقانون (ابن سينا) كتبه من أجل أطباء عصره، ويقع الموجز فى أربعة أجزاء لا خمسة كما هو حال القانون، إذ إنه ضم كتاب الأدوية إلى الجزء الثانى بعد المفردات، وتوجد نسخ منه فى : باريس، وأكسفورد، وفلورنسا، وميونخ، والأسكوريال. ومما يدل على انتشار هذا المؤلف كثرة عدد التعليقات التى خصصت له. وأولها يكاد يقارنه وهو (لأبى إسحق إبراهيم بن محمد الحكيم) المتوفى سنة ١٢٩١. ثم آخر اسمه «حل الموجز» لجمال الدين محمد بن محمد الأكسرائى، متوفى قبل ١٣٩٧، وهو موجود فى المكتبة البودلية، ثم ثالث ألف فى كهرمان وانتهى نسخة فى سمرقند سنة ١٤٣٧م (لنفيس بن عوذ الكرمانى)، وهو حسب قول (حاج خليفة) أجود التعليقات، وأضاف إليه (غرس الدين أحمد بن إبراهيم الحلبى) حول ١٥٦٣ بعض الحواشى. وهناك تعليقات أخرى (لمحمود أحمد الأقساطى الحنفى، (ولد ١٤٠٧)، ولشهاب الدين محمد البلبلى، ولسديد الدين الكزرونى). وهذان الأخيران لا نعرف تاريخهما، وقد ترجمه أيضاً إلى التركية أولا (مصلح الدين مصطفى بن شعبان السرور) ثم (أحمد بن كمال الطبيب) فى أوربا نوبل، وترجم إلى العبرية وعنوانه فى هذه اللغة «سفر حاموجز»، وقد طبعه لأول مرة بالإنجليزية (مولوى غلام مخدوم ومولوى عبد الله سنة ١٨٢٨) فى كالكوتا تحت عنوان «الشرح المغنى» أو «المغنى فى شرح الموجز» وكان هذا باللغة الإنجليزية وذكر فى هذه الطبعة الألفاظ الإغريقية إلى جانب ما يطابقها من الكلمات الفنية العربية، ثم أعيد طبعه فى لوكنو، وضم إليه معجم بأسماء المفردات مفسرة بالإيرانية. ومازال هذا المؤلف يدرس إلى اليوم فى الهند.

ولو أن ما ذكرناه هو كل ما يؤهل اسم (ابن النفيس) للخلود لكان كافيًا لأن يكفل له مكانة رفيعة فى مصاف هؤلاء الأفذاذ، الضالعين فى العلم والفكر، الذين رزقتهم العصور الوسطى فى بلاد متعددة، والذين أحاطوا - بفضل عقولهم النادرة -

بكل ما توصل إليه عصرهم من شتى صنوف المعرفة. وإنما فخر (ابن النفيس)، بل فخر العرب فى كل مكان، أن يكون هذا العالم الفذ قد تطاول على القيود التقليدية التى كانت تشل نشاط المشتغلين بالعلم، وتحرر من سيطرة (جالينوس، وابن سينا)، وأنكر - فى جرأة - كل ما لم تره عينه أو يصدقه عقله، وهذا فى مؤلف هو «شرح تشريح القانون» الذى اكتفى (ليكلير Leclerc) فى كتابه عن طب العرب (سنة ١٨٧٦، ص ٢٠٧، الجزء الثانى) بأن قال إنه موجود فى مكتبات باريس والأسكوريال وأكسفورد. وقد بات هذا الكتاب فى غبار المكتبات لم يستلفت نظر القارئين سبعة قرون إلى أن عثر عليه طبيب مصرى هو الدكتور (محيى الدين التطاوى سنة ١٩٢٤) فى دار كتب برلين. وقد قام التطاوى بدراسته فى الرسالة التى قدمها لنيل الدكتوراة من جامعة فريبورج بألمانيا، ويرى الدكتور (مايرهوف) (١٨٠) أن الدكتور (ديبجن Diepgen) رئيس معهد تاريخ الطب فى برلين أرسل إليه نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة من هذه الرسالة التى لم تكن طبعت بعد، وقد كان هذا بداية بحث أدى إلى الكشف عن نسخ أخرى من هذا المؤلف يشير (مايرهوف) إلى أربع منها وعن ترجمات لحياة (ابن النفيس) فى كثير من المؤلفات القديمة.

وقد أراد البعض أن يغتصب من (التطاوى) الأولية لنفسه فى هذا الكشف، غير أن (جاستون فيت) وضع سنة ١٩٥٦ الأمور فى نصابها. والظاهر أن طبيبين فرنسيين هما (بينى وهاربان) كتبا سنة ١٩٣٩ عن (ابن النفيس) واعترفا بأنهما استقيا معلوماتهما من مقال (مايرهوف) الذى كان قد ترجم إلى الفرنسية الفقرات الخاصة بالدورة الرئوية. ثم أنهما فى سنة ١٩٤٨ فى مقال آخر ادعيا أن (لكلير) لم يذكر (ابن النفيس)، وهو ما كذبه (عبد الكريم شهادة) فى رسالته عن (ابن النفيس)، وأنهما طلبا من أديب مغربى أن يترجم لهما النص العربى. إلا أن (فيت) قارن الترجمتين واستنتج أن ترجمة هذا الأديب تكاد تكون قد نقلت حرفيًا من ترجمة (مايرهوف)، بل إنه أغفل نفس الألفاظ التى كان قد أغفلها (مايرهوف)، فتساءل بشيء من التهكم إذا كان هذا الأديب «غش» الدكاترة (بينى، وهاربان) بأن نقل ترجمة (مايرهوف) نقلا، بدلا من أن يتحمل هو مشقة الترجمة!

وبعد ذلك، سنة ١٩٥٥، بعد أن نشر الدكتور (عبد الكريم شهادة) رسالته

بالفرنسية عن هذا الطبيب، ادعيا أن ترجمة الدكتور (كرامة) هى الترجمة التى أعطياها.. وأغفلا القول بأن ترجمتها منقولة عن (مايرهوف).

أما الدكتور (عبد الكريم شهادة) فإنه اعترف بفضل (التطاوى) فى هذا الكشف

ولننظر الآن إلى هذا المؤلف! ليس أدل على قيمته، وعلى الروح السائدة فيه، مما ورد فى مقدمته: «وبعد حمد الله والصلاة على أنبيائه ورسله، فإن قصدنا الآن إبراز ماتيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ الرئيس (أبى على الحسن بن عبد الله بن سينا) رحمه الله فى التشريح فى جملة كتاب القانون. وذلك بأن جمعنا ما قاله فى الكتاب الأول من كتاب القانون إلى ما قاله فى الكتاب الثالث من هذه الكتب، وذلك ليكون الكلام فى التشريح جميعه منظومًا، وقد حدنا عن مباشرة التشريح بوازع الشريعة وبما فى أخلاقنا من الرحمة، فلذلك رأينا أن نعتمد فى تعرف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر خاصة الفاضل (جالينوس) إذ كانت كتبه أجود الكتب التى وصلت إلينا فى هذا الفن، مع أنه أطلع على كثير من العضلات لم يسبق إلى مشاهدتها فلذلك جعلنا أكثر اعتمادنا فى تعرف صور الأعضاء وأوضاعها ونحو ذلك على قوله إلا فى أشياء يسيرة ظننا أنها من أغاليط النسلخ أو إخباره عنها لم يكن من بعد تحقق المشاهدة فيها. وأما منافع كل واحد من الأعضاء فإنما نعتمد فى تعرفها على مايقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا وافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفه».

ولكى ندرك أثر هذا الاتجاه فى التفكير ومداه البعيد أرى أن أعرض أمامكم نظرية حركة الدم منذ (جالينوس)، التى نقلها (ابن سينا)، ثم تعليقات (ابن النفيس) عليها.

وحين أقول حركة الدم أود أن أميز بين الحركة والدورة، إذ إن فكرة الدورة لم تنشأ إلا فى القرن السابع عشر، وأن تلك الحركة كانت تعتبر مجرد مد وجزر فى الأوعية. وتبعًا لهذه النظرية كان الوريد الباب ينقل الغذاء من الأمعاء إلى الكبد حيث كان يحول إلى دم. ثم كان الدم يسرى من الكبد إلى سائر الأعضاء عن طريق وريدين أجوفين، أحدهما، وكان يسمى الوريد الأجوف السفلى، هو جزء الوريد الأجوف السفلى الواقع أسفل مصب الوريد الكبدى الذى يجرى إلى أسفل ليغذى الكليتين والأطراف السفلى. والآخر وكان بسمى بالوريد الأجوف العلوى يسرى إلى أعلى، وكان مكونًا من جزء

الوريد الأجوف السفلى الحالى الواقع بين الكبد والقلب، والوريد الأجوف العلوى الذى كان يعد مكملا له، أما نصف القلب الأيمن، فإنه كان ينظر إليه على أنه جيب للوريد لا منفذ له. وكان الدم - تبعًا لهذه النظرية - يصل من الكبد إلى التجويف الأيمن فيتخلص فيه من الشوائب التى تكون قد علقت به فى مختلف الأعضاء، ثم يعود مطهرًا سالكًا الطريق نفسه إلى الأحشاء، على حين تذهب الشوائب عن طريق الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) إلى الرئة وتتصعد منها إلى الزفير.

إلا أن (جالينوس) وجد أن الأوعية الواردة إلى القلب أكثر اتساعًا من الأوعية الخارجة منه، فاستنتج من ذلك أن الدم الوارد إليه أكثر من الخارج منه عن طريق الأوعية، مما جعله يزعم أن هناك منفذًا، يتسرب منه الفرق بين الكميتين إلى البطين الأيسر، وأن هذا المنفذ يقع فى الحاجز بين التجويفين ويفسر وجود بعض الدم فى الشرايين.

وكذلك الحال بالنسبة إلى الأورطا: فإنه أكبر من الشريان الوريدى (الوريد الرئوى)، والعلة فى هذا أنه يستقبل بعض الدم الإضافى من التجويف الأيمن عن طريق هذا المنفذ. وكان الأورطا فى نظرهم مجرد امتداد للقصبة الهوائية، ومن هنا تسمية القصبة فى اللغة الفرنسية trachée artere، ومعناها الشريان الخشن. كان (جالينوس) إذن يعتقد أن الهواء يرد إلى التجويف الأيسر عن طريق القصبة ويمتزج فيه بالدم النافذ من البطين الأيمن فتتولد منهما الروح pneuma التى تسرى فى الشرايين.

ولم يكن غريبًا أن تصدر هذه المزاعم عن (جالينوس) وهو فيلسوف متشبع بالأراء الغائية، فقد قال إن من الأفضل للشرايين أن تتلق دمًا سبق إعداده فى الأوردة والبطين الأيمن، وإن الفائدة التى تعود من تصفيته عبر منافذ الحاجز ليصبح شريانيًا واضحة لا تحتاج إلى برهان، وكذا عد الأوردة بالنسبة إلى الشرايين كالمعدة بالنسبة للأوردة، إذ لا يستحيل منطقيًّا أن تكون الروح نوعًا من الإفراز الصادر عن الدم. ولذا فقد استدل من ذلك على أن الطبيعة تحسن دائمًا فيما تفعل.

كان إذن الجهاز الوريدى فى نظره منفصلا تمامًا عن الجهاز الشريانى، فيما عدا منافذ حاجز القلب المزعومة، وكانت وظيفتا الجهازين مختلفتين، فالأول ينقل الدم من الكبد

إلى القلب ومن القلب إلى الأنسجة، أما الآخر فينقل الروح من القلب إلى الأعضاء. وهنا يبدو التناقض جليًا فى تفكير (جالينوس)، فبينما كان يدعى دائمًا الاعتماد على التشريح ويوصى تلامذته بالاقتداء به، إذا به يؤكد وجود منافذ لم ترها عين، وذلك لسبب ميله لصياغة الملاحظات الحسية على شكل يلائم نظرياته الافتراضية. وقد حار المؤرخون فى تفسير التناقض فذهب بعضهم إلى تعليله بأنه أسس افتراضاته على نتائج تشريحية للأجنة والموتى من الأولاد، إذ إن تكوين أوعيتهم يشبه فعلا ما وصفه للأوعية عن البالغين، إلا أن الإنصاف يقتضى منا أن نتذكر أن عصره كانت الغلبة فيه للتعقل على التجربة. وكيفما كان الأمر فإن هذه المنافذ ظلت عقيدة جامدة حتى القرن السابع عشر وحتى بين أكثر الأطباء استقلالا فى الفكر، فقد آمن بها ابن سينا، كما سجلها (ليوناردو دافنشى) فى لوحاته التشريحية عندما كانت النهضة العلمية الإيطالية فى ذروتها، مع أنه قام هو نفسه بتشريح جثث عدة.

لننظر الآن إلى ماورد فى تعليقات (ابن النفيس) على ما قاله (ابن سينا، وجالينوس) فى كتابه «شرح التشريح»، مع عدم التقيد بمراعاة الترتيب الذى اتبعه (ابن النفيس) فى بسط آرائه، إذ إن كتابه يزخر بالتكرار والاستطراد ولا يتبع نظامًا متسلسلا فى عرض قضاياه، وهذا طبيعى، إذ إنه راعى النظام نفسه الذى روعى فى تأليف كتاب «القانون».

نلاحظ أن تفكيره منطقى وأن نتائجه صحيحة فى معظم الحالات، اللهم إلا عندما يؤكد مثلا، على عكس ما قاله (ابن سينا)، أن البطين الأيمن لا ينقبض تلقائيًا، وإنما يجتذب الدم بامتصاص سلبى.

ويمكن حصر ما أتى به (ابن النفيس) من جديد فى الفقرات التالية الخاصة بالروح، والتى يتضح منها مبدئيًا أن المؤلف قبل النظرة السائدة، وهى أن البطين الأيسر والشرايين مليئة بالروح، وأن الروح تتولد فى التجويف الأيسر باختلاط الدم بالهواء. قال (ابن النفيس):

«والذى نقوله نحن والله أعلم، إن القلب لما كان من أفعاله توليد الروح وهى إنما تتكون من دم دقيق جدًا شديد المخالطة لجرم هوائى فلابد وأن يحصل فى القلب دم

obeikandl.com

رقيق جدًا وهواء ليمكن أن يحدث الروح من الجرم المختلط منهما وذلك حيث تولد الروح وهو فى التجويف الأيسر.

ثم يفسر ضرورة الرقة الشديدة فى الدم الواصل إلى التجويف الأيسر وكيفية حدوث هذه الرقة. فيقول «ولا بد فى قلب الإنسان ونحوه مما له رئة من تجويف آخر يلطف فيه الدم ليصلح لمخالطة الهواء، فإن الهواء لو خالط الدم وهو على غلظه لم يكن جملتها جسم متشابه الأجزاء. وهذا التجويف هو التجويف الأيمن».

نستطيع إذن أن نستخلص أن وجود تجويف آخر محتم فى نظره لضرورة تلطيف الدم تمهيدًا لمخالطته الهواء. وهذا استنتاج غائى بحت. ونعنى بذلك استنتاجه وجود الشيء من ضرورته، وربما قال البعض إنه سبق فى ذلك (لامارك) وأمثاله فى نظريتهم القائلة بأن الوظيفة تكيف العضو، ولكن العلماء المتعلقين كانوا - فى رأينا - كثيرًا ما يبدءون بملاحظة واقعية، ثم يشغلون أنفسهم بعد ذلك بمحاولة استنتاج ضرورتها. ويسترسل (ابن النفيس) فى سرده لآرائه فيقول:

«وإذا لطف الدم فى هذا التجويف (أى الأيمن) فلا بد من نفوذه إلى التجويف الأيسر حيث مولد الروح». وهذا بالطبع ضرورى لإتمام نظريته فى تكوين الروح. غير أنه يضيف «ولكن ليس بينهما منفذ، فإن جرم القلب هناك سميك ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم كما ظنه (جالينوس) فإن مسام القلب هناك مستحصنة وجرمه غليظ.

من أين إذن يكون مرور الدم؟ ألم ينكر صراحة وجود مسام فى الحاجز؟ لقد بحث (ابن النفيس) عن مكان هذا الاتصال، فلم يزد من أن يقطع بأن الدم يلطف فى التجويف الأيمن وينفذ إلى الرئة وهناك - على حد قوله - «يخالط الهواء ويرشح ألطف ما فيه وينفذ إلى الشريان الوريدى (الوريد الرئوى)، ليوصله إلى التجويف الأيسر وقد خالط الهواء وصلح لأن يتولد منه الروح، ويضيف:

«وما بقى منه أقل لطافة تستعمله الرئة فى غذائها».

وقد أكد هذا فى موضع آخر بقوله «فإن نفوذ الدم إلى البطين الأيسر إنما هو من الرئة بعد سخنه وتصعده من البطين الأيمن كما قررناه أولا».

وكأنه لم يكتف بكل هذا فأراد زيادة التأكيد بأن الدم إنما يجرى فى اتجاه واحد وأنه ليس موضوع مد وجزر فقال أيضًا : «قوله واتصال الدم الذى يغذو الرئة، إلى الرئة من القلب (وهو يعنى التجويف الأيسر)، هذا هو الرأى المشهور وهو عندنا باطل فإن غذاء الرئة لايصل إليها من هذا الشريان لأنه لايرتفع إليها من التجويف، إنما يأتى إليه من الرئة لا أن الرئة آخذة منه. أما نفوذ الدم من القلب إلى الرئة فهو فى الوريد الشريانى (الشريان الرئوى). واستطرد فى معرض حديثه عن سبب نحافة جدار الوريد الرئوى : «وقوله وليكون أطوع (أى جدار الوريد) ليرشح منه ما يرشح منه إلى الرئة من الدم اللطيف، هذا أيضًا على الرأى المشهور والحق أنه ليس كذلك بل ليكون أطوع لقبول ماينفذ من الدم الهوائى الذى يوصله من الرئة للقلب.

يبدو بوضوح فى كل هذه الفقرات أن (ابن النفيس) اهتدى إلى المعرفة بأن اتجاه الدم ثابت وأنه يمر من التجويف الأيمن إلى الرئة حيث يخالط الهواء، ومن الرئة عن طريق الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) إلى التجويف الأيسر.

ولننظر الآن إلى ماقاله عن الشريان الوريدى (وهو ما نسميه الوريد الرئوى) والوريد الشريانى (وهو الشريان الرئوى) إذ إن أقواله فى هذا الصدد ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما سبق.

بدأ (ابن النفيس) بأن تناول الشريان الوريدى (وهو مانسميه بالوريد الرئوى) فقال «إن هذا العرق شبيه بالأوردة وشبيه بالشريان. أما شبهه بالأوردة فلأنه من طبقة واحدة، وأن جرمه نحيف، وأنه على قوام ينفذ فيه الدم لغذاء عضو». ويفسر هذا فى فقرة أخرى فيقول «فلابد وأن يكون هذا الدم إذا لطف نفذ فى الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) إلى الرئة لينبث فى جرمها ويخالط الهواء ويصفى ألطف مافيه وينفذ إلى الشريان الوريدى ليوصله إلى التجويف الأيسر» ثم فى مكان آخر :

«ولذلك جعل الوريد الشريانى (الشريان الرئوى)، شديد الاستحصاف ذا طبقتين ليكون ما ينفذ من مسامه شديد الرقة، وجعل الشريان الوريدى نحيفًا ذا طبقة واحدة ليسهل قبوله لما خرج من ذلك الوريد ولذلك جعل بين هذين العرقين منافذ محسوسة».

وفيما يتصل بهذه المنافذ يجب أن نتذكر أن العدسة المكبرة لم تكن قد اخترعت بعد،

وأن مالبيجى لم يكشف عن الأوعية الشعرية إلا بعدة بقرون، الأمر الذى جعل الشرايين تعد منفصلة انفصالا تامًا عن الأوردة.

ولذلك فإن (ابن النفيس) لم يبعد كثيرًا عن الحقيقة عندما قال إن الدم يمر من مسام بين العرقين هى منافذ محسوسة بمثابة الأوعية الشعرية.

وتابع وصفه للشريان الوريدى (أى الوريدى الرئوى) بأن قال «أما شبهه بالشريان فلأنه ينبض. وينبت على قولهم من القلب. ولما كان نبض العروق من خواص الشرايين لاجرم كان إلحاق هذا العرق بالشرايين أولى.. ونقول إن العروق التى تنبت فى الرئة تخالف جميع عروق البدن وذلك لأن فى جميع الأعضاء يكون للعرق الضارب طبقتان ولغير الضارب طبقة واحدة والضارب مستحصف وغير الضارب نحيف وعروق الرئة بالعكس من هذا».

وهنا يبدو جليًا أنه يصف الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) بأنه ينبض فى حين لا ينسب إلى الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) سوى حركة تابعة لحركة الرئة. وفى هذا خطأ واضح. ثم علق على اختلاف أوعية الرئة عن الأوعية الأخرى من حيث تكوين جدرانها فقال «واختلفوا فى سبب ذلك فقال اسطسداس إن ذلك لأن شرايين الرئة شديد الحركة كبيرتها جدًا فتهزل وذلك لأنها تنبض بنفسها وتنبسط وتنقبض تبعًا لانبساط الرئة وانقباضها والحركة المفرطة مهزلة. وأما أوردتها فإنها تتحرك تبعًا لحركة الرئة فقط. والحركة المعتدلة مغلظة للجرم»، وهذا التعليل يلائم اهتمامه بتفسير كل ظاهرة تفسيرا عقليا يتفق مع النظريات السائدة وإن كان لا يستند فى مزاعمه إلى برهان.

وهناك نقطة أخرى لم يوافق فيها (ابن سينا)، وهى عدد تجاويف القلب... «قوله وفيه ثلاث بطون. وهذا كلام لا يصح فإن القلب له بطنان فقط أحدهما مملوء من الدم وهو الأيمن والآخر مملوء من الروح وهو الأيسر، ولا منفذ بين هذين البطنين البتة، وإلا كان الدم ينفذ إلى موضع الروح فيفسد جوهرها. والتشريح يكذب ما قالوه.

وهذه العبارة الأخيرة جديرة بالتأمل. فقد سبق أن قال لنا فى ديباجة (شرح التشريح):

«وقد حدنا عن مباشرة التشريح وازع الشريعة وما فى أخلاقنا من الرحمة»، وهاهو

يقدم لنا الدليل على اعتماده على هذا التشريح إذ يقول: «والتشريح يكذب ذلك». ولسنا نجد تفسيرا لهذا التناقض الظاهرى سوى أنه حرص على عدم إثارة حنق رجال الدين، شأنه فى ذلك شأن كثيرين من العباقرة المجددين أمثال (كوبرنيكوس، وجليليو) عندما استهلوا مؤلفاتهم الثورية بتأكيد تبعيتهم للعقائد الدينية السائدة فى عصرهم. كما أنه حرص على ألا يتهم بالجهل، كما كان يتهم كل من ينكر تعاليم (جالينوس) إذ اعتذر عن هذا النقد حين قال فى الديباجة نفسها «إلا فى أشياء يسيرة ظننًا أنها من أغاليط النسخ». وذلك لإثارة الشك فى أمانة النسخ لافى علم الفاضل (جالينوس).

وبالإضافة فإن فى هذا الكتاب فقرات عدة تستحق الذكر وتحض على التأمل والاعتبار، وحسبى أن أذكر عبارة واحدة لها أهميتها بالنسبة لتاريخ الطب وهى خاصة بتغذية عضلة القلب التى قال عنها (ابن سينا) إنها تتم عن طريق الدم الموجود فى تجويفه وقال (ابن النفيس) بصددها: «قوله.. لا يصح البتة فإن غذاء القلب إنما هو من الدم المار فيه من العروق المارة فى جرمه». وهذه العبارة تجعل منه أول من فطن إلى وجود أوعية داخل عضلة القلب لتغذيتها، أى أول من وصف الشرايين التاجية، وهى تقوى الظن بأنه مارس التشريح.

ولعلنا نستطيع الآن وصف حركة الدم كما كان يتصورها، كان الدم يأتى غليظًا من الكبد إلى التجويف الأيمن حيث يلطف، ثم يمر فى الشريان الرئوى، وهو وعاء غير نابض يتحرك مجرد حركة تابعة لحركة الرئة، وهذه الحركة لأنها معتدلة تغلظ جداره، ثم يصل الدم إلى الرئة حيث يصفى قسم رقيق، ويتبقى قسم غليظ يغذى الرئة.

أما القسم الرقيق فإنه يختلط بالهواء القادم إلى الرئة عن طريق القصبة الهوائية، ويدخل هذا المزيج الوريد الرئوى عبر جداره الرقيق. وعلة رقة الجدار أولا ضرورتها لمرور الدم الملطف، ثم كثرة حركة الوريد، إذ إنه - فى زعمه - نابض تلقائيًا بالإضافة إلى حركته تبعًا لحركة الرئة ثم يصل المزيج (دم رقيق وهواء) إلى التجويف الأيسر حيث تتكون الروح، وتخرج الروح إلى الأورطا فالشرايين فالأنسجة، أما غذاء القلب فإنه يتم عن طريق شرايين تجرى فى جرم القلب.

وإذا قارنا آراء (ابن النفيس) بنظريات معاصريه، تبينت لنا أسبقيته لهم. ولنا أن

نتساءل : ألم تكن بحوثه جديرة بالتبصر والاعتبار؟ أنسيت حقًا؟

والحقيقة أن هذا الأهمال لم يكن إلا إمهالا، وكان منشؤه هالة القداسة التى بنت ردحًا طويلا من الزمن حائطًا حول أقوال (جالينوس)، لم يجرؤ أحد على هدمه، وقد بلغ الإيمان بأقوال العالم الإغريق (أن ريولان) - المعاصر (لهارف) - قطع بأن أى اختلاف يلاحظ بين الواقع وبين قضايا (جالينوس)، يرجع إلى تغير طرأ على الطبيعة. ولذا فإنه يتحقق (لابن النفيس) مجدان : مجد كشوفه ومجد جراءته.

وهنا يجدر بنا أن نتساءل : «هل نسيت تعاليم (ابن النفيس) فيما بعد، وهل كان كشف نهضة الغرب كشفًا مستقلا؟. وهذا ما سنعرض له فى الباب الحادى عشر من هذا المؤلف بعد استعراض نشأة جامعات أوربا وعرض نظرية (هارف).

obeikandl.com